بين الرافعي و العقاد

العقـــاد

للأستاذ سيد قطب

— ٨ —

لم يعجب الأستاذ « اسماعيل مظهر » ما نكتبه تحت هـذا العنوان . ونحن نأسف أن لم ننل إعجابه أو رضاءه ؛ ولـكن يعزينا عن هـذا الفقدان أنه يعجبنا نحن ويرضينا — مع الأسف كذلك !

يقول الأستاذ :

« أما الذى لا أفهمه ولا أستطيع أن أفهمه يوماً من الأيام ، فأن يتطوع ناقد لنصرة كاتب على آخر ، أو شاعر على شاعر غيره ، احتساباً لوجه الله الكريم ، من غير أن يكون الناقد فى نقده مخلصاً أول الشيء لمذهب بيّن فى الأدب ، يعتنقه الكاتب المنتصر له »

هكذا يقول الأستاذ ، أما نحن فنقول :

« إن الذى لا نفهمه ، ولا نستطيع أن نفهمه يوماً من الأيام فأن يكون رجل كالأستاذ اسماعيل مظهر ، أو أقل منه درجات ، يقرأ ما كتبناه ، ثم لا يتبين منه أننا ننقد مذهباً معيناً فى الأدب ونعتنق مذهباً بيّناً منه كذلك، وأن الكاتب الذى ننتصر له ، يمثل مذهباً بيّناً يدعو إليه منذ خمس وعشرين سنة ، وما يزال يشرحه ويقرره ، ويعود إليه فى نثره وشعره كله ، وأننا من أخلص تلاميذ مدرسة هذا الكاتب لطريقته ، وأشد الناس فهماً لها ، واقتناعاً بها ، ونسجاً على منوالها »

ويتحدث الأستاذ عن الشذوذ فى نصرة كاتب على كاتب ، فإن شاء أن يعرف الشذوذ حقاً ، فنحن محدثوه عنه :

إنه يا سيدي فى تقديم هذه السوأة الأدبية الخلقية الانسانية المسماة « على السفود » ، في تقديمها ذاته ، وفى طريقة تقديمها ، وفى نشرها ، دون تأذ ولا تأثم ، ولا خشية على آداب الحديث فى الأمة ، ولا آداب الطريق (ودعك من آداب النقد) ودون رحمة بأسماع الناس وأبصارهم وآنافهم !

وإذا شاء الأستاذ أن يعرف نوع هذا الشذوذ ، فليعلم أن هذه السوأة التى كشف عنها من قدّمها للناس ، لم يستطع أشد تلاميذ الرافعى إخلاصاً له أن يبلعها ، ولقـد حاول أن ينحيها — فى خفة — عن أعين النظارة ، وهو يزن حسنات الرافعى ، ويزعم وزن سيئاته ، حتى لا تهبط هـذه السوأة بالـكفة إلى الحضيض لو هى لامست الميزان . وكان هذا عدالة منه من هذه « العدالات » الفريدة التى يتشح بعض الناس بوشاحها

فالأستاذ سعيد العريان يقول : « من قرأ « على السفود » فعابه على الرافعى وأنزله غير ما كان ينزله من نفسه ... الخ »

وإذا قال الأستاذ سعيد مثل هذا ، وهو يدغم الكلام، ويدحرجه ليبعد بهذه السوأة عن الأنظار ، فالذين لم يصابوا بعد بداء العدالة التاريخية يستطيعون أن يعرفوا مقدار شنعتها

ولولا أننى أكرم أسماع القراء وآدابهم وإنسانيتهم من التدهور أو التأذي والتأفف ، لنقلت لهم شيئاً من « على السفود » الذى لا يعتبر تقديمه ونشره وترويجه شذوذا ، ولا مناصرة لأديب على أديب ، ولا تدخلاً فى الشخصيات ، وإنما يعتبر نصرة لمذهب بيّن على مذهب بيّن فى الآداب والآراء !

أما قصة الموت والموتي ، فقد أسلفت الحديث عنها فى الكلمة الفائتة ، وبهذه المناسبة أقول للزميل الودود الأستاذ سعيد : إن زميله سيد قطب ليس هو الذى يعزق الأكفان بالأظفار ، والذى يعزق بظفره ، مخلوق آخر ، أكرم آدابى وآداب الناس أن أقول: إن الأستاذ أو أحد زملائه من فصيلته ! خشية أن تتدهور خطوة أو خطوتين بعدها فيصبح من النقاش « الأدبى» المعترف به ، أن يقول الواحد للآخر : « يا ابن ال... » ويكون هذا من أساليب النقاد !

بقى الرجل « الذى له عمل يملأ يومه ونهج يدير حياته » . وقد أكرمته وأكرمت « دمشق عن مناقشة قوله فأبى ، وما زلت على رأيي الأول .

ولـكنى أرى من حق سوريا الشقيقة علىّ ، وأنا ممن يحفلون بالدعوة إلى الرابطة الشرقية ، أن أنبه عن « دمشق » وأهلها ، ما قد يتبادر إلى نفوس المصريين من تقدير لها ولأهلها على أساس كلمات الأستاذ .

فليس كل من فى « دمشق » يجهل الأدب والأدباء فى مصر ، ولا يطلع على كل الصحف الراقية هنا ، حتى يكون ممن لم يروا « سيد قطب » إلا للوهلة الأولى . ولعل للأستاذ عذرا من « عمله الذى يملأ يومه ونهجه الذى يدير حياته »

وليس كل من فى « دمشق » يقرأ لكاتب معين « فيقبل كل ما جاد به » هكذا بدون تروّ ولا تفكير ولا رأى خاص . ولا يقرأ لكاتب معين ، فاذا ما قرأه « لم يعلم لآرائه من القيمة والخطر ما يدفعه إلى مناقشتها » مع أنها بين يديه ، وتحت سمعه وبصره

وأنا أعرف من معارفى وأصدقائى السوريين ، من لهم فكر ورأى ومن لهم شخصية مستقلة ، فليطمئن المصريون على عقيدتهم فى جيرتهم !

وليس أدل من صواب رأيى باديء ذى بدء فى ترك مناقشة هذا الأستاذ من ظنه أنه متى جاء لى ببيت لشوقى على مثال تشبيه الرافعى الذى انتقدته ، فقد انتهى القول ، وبطل الجدال !

لا . ياأخانا . يقول ألف رافعى ، وألف شوقى ، وبقى بعد ذلك مجال للنقد والتعليق والكلام ... !

وقد فهمت من كلامه أن « عمله » الذى يملأ يومه ، ونهجه الذى يدير حياته ، والذى يمنعه — وهو معذور — من متابعة خطوات الأدب والأدباء فى مصر ، وربما فى دمشق ، هو التدريس بالمدارس

فأنا — فى إخلاص — أقول لحضرته إنه يؤدى مهمة جليلة يجدر به الاقتصار عليها ، فليس من الضرورى أن يكون كل إنسان أديباً وناقداً ، والمدرس ليس عاطلاً ولا فارغاً ولا صاحب مهمة نافلة يتركها لسواها

فأما إذا لم يسمع هذه النصيحة ، وأصر على الاشتغال بالأدب فله ذاك ما دام القانون لا ينص على شروط معينة فيمن يشتغلون بالآداب ... !

* * *

وبعد فقد هممت أن أعاهد القراء على ألا أشغلهم بالالتفات إلى هذا الناس ، بعد ما أصبحت يائساً أشد اليأس من فهمهم لما أقول ، أو استعدادهم لمتابعة المدرسة العقادية فى خطواتها . لولا أننى أعتقد أن للرسالة قراء آخرين غير الرافعيين ، فلهؤلاء القراء أكتب ؛ ولولا أننى أضطر تأدباً أن أرد على من يوجه إلى الخطاب مهما كان شأن ما يقول

ولكن هذه فى الحق خطة متعبة ، وتأدب يكلف جهداً ومشقة ؛ وأغلب الظن أننى سأعدل عنه ، وسأسرع فى استعراض البرنامج الذى وضعته للبحث منذ المقال الأول ، وقصدى منه إبراز صورتين متقابلتين للمدرسة العقادية والمدرسة الرافعية ، فى فهم الأدب وفهم الحياة

ولولا أننى اعتدت أن أضع الخطة وأنفذها ، دون اعتداد بما يجد فى الطريق ، لآثرت الوقوف عند هذا الحد ، فقد فهم من لديه استعداد للفهم ، وبقى ناس لاحيلة فى تبديل طبائعهم وخلق نفوسهم وأذواقهم من جديد

والآن إلى تتمة الحديث :

* * *

يعنى العقاد — إمام المدرسة الحديثة — بالحياة النابضة فى ضمائر الأشياء قبل الحياة الظاهرة على سطوحها ، ويعنى بالحياتين معاً قبل العناية بأشكالها وصورها ، ويلتفت للخوالج النفسية قبل أن يلتفت إلى الصور الذهنية ، ويعنى بهاتين قبل العناية ببهارج الأسلوب وزخارف الطلاوة

ولا يعنى هذا أن الأسلوب الفخم والتعبير الجيد بعيدان عن شعر العقاد . ولهذا مبحث خاص ، سأفرد له كلمة ، ربما كانت الأخيرة

يؤم المسجد يوم الجمعة للصلاة حشد حاشد ، كلهم مصل ، وكلهم خارج من المسجد بعد الصلاة ، ويمر هذا المنظر على الشعراء والأدباء فى مصر وغير مصر ، ويتكرر الأسبوع تلو الأسبوع . ولكن العقاد وحده هو الذى يلتفت التفات الفنان المثقف ثقافة نفسية واجتماعية ، إلى ما يجول فى خواطر هؤلاء المصلين ، وما تهتف به نوازعهم فتكتمه عقولهم الواعية ، وما يسرب فى ضمائرهم أو يغشاها . ذلك أنه يروى فيتخيل ، ويلاحظ فينقد ، ويحس فيحلل ؛ ثم هو بعد هذا وذاك يمثل ويجسم خفايا النفوس الإنسانية ، ويعرض نماذجها المختلفة فى معرضه الفنى الحافل بصور النفوس :

بعد صلوة الجمعة

على الوجوه سيمة القلوب فانظر إلى المسجد من قريب
وقف لديه وقفة اللبيب في ظهر يوم الجمعة المحبوب
إنك في حشد هنا عجيب

* * *

هذا الذى يمشى . ألا تراه كأنما قد حملت يداه
سفتجة[1] صاحبها الاله ؟ ذاك هو الدين . وقد وفاه
فليس للدائن بالمطلوب !

* * *

وذلك المبتسم الرصين كأنه بسره ضنين
أصغى إليه سامع أمين فهو إذا صلى كمن يكون
فى خلوة النجوى مع الحبيب !

* * *

وانظر إلى صاحبنا المختال فى حلة صافية الأذيال
أكان فى حضرة ذى الجلال أم كان فى عرض أو احتفال
يزهى على المحروم والسليب !

* * *

وكم معلل خافت الدعاء كأنما نصٌّ إلى السماء
رسالةً فى عالم الخفاء فلا بنى يبدو لعين الرائى
كالترجى أوبة المكتوب !

* * *

ورب شيخ من ذوى الخلاق[2] فرحان بالجمع وبالتلاق
كأنه التلميذ فى انطلاق بين تلاميذ له رفاق
عادوا إليه عودة الغريب

* * *

هذه هى الصور الباطنة لتلك السحن الظاهرة ، وليس فيها ما لا نعرفه الآن ، فى مشاهد الصلاة ، بعد أن أشار إليها العقاد. وهذه ميزة الشاعر ذى « النفس » الذى يلمح ما فى النفوس ، فيطلعنا على ما كان بين أيدينا غائباً عنا من صور الحياة وأنماطها ، لأنه يجلوه فى مرآة نفسه الخاصة

ثم يمضى بعد هذا الاستعراض ، بطرق الفلسفة العامة ، فى دعابة وفسحة فى النفس ، تتلقى هؤلاء الأحياء المختلفى المطامع والأهواء تلقى الوالد العطوف لأبنائه ، وهم يختلفون منازع واتجاهات ، وهو يبسم ابتسامة الحكم الرفيق

تجمعوا فى بيته تعالى وافترقوا فى جمعهم أحوالا
وهل نسوا فى أرضه النزالا فيحتويهم بيته أمثالا
على اختلاف السمت والنصيب !

* * *

لعلهم صلوا له ارتجالا فاختلفوا ما بينهم سؤالا
فلو أجاب السائلين حالا صب على رءوسهم وبالا
وألحق المخطئ بالمصيب

هذه قطعة واحدة من « عابر سبيل » يمثلها مشهد مألوف للجميع . وهو « على قارعة الطريق » ولكن المارة لابد لهم من عين وذهن ونفس لتراه ثم تدركه ، ثم تتفاعل فيه . وأنت خليق أن تجد عند العقاد كثيراً من هذا النوع ولاسيما فى « عابر سبيل »

* * *

وللعقاد عناية بتصحيح مقاييس الأحكام على الطبائع والنفوس منشؤه أنه صاحب « نفس » خاصة ، و « طبع » أصيل ، فهو لا يتلقى المبادئ والأحكام من الخارج ، ولكن يفيض بها من الداخل ، ويسمع فيها منطق الحياة الخالدة ، ووحى الانسانية الدائمة ، لا منطق الفرد العابر ، ولا الجيل القاصر . ومن هذا النحو قوله عن « عدل الموازين » و « جلال الموت » وقد استعرضتهما آنفاً ومنه :

من ساء بالناس ظناً دون ما ألم أحق عندى بسوء الظن والتهم
أسيء ظنونك لكن مكرها أبدا كمن يظن ببعض الآل والحرم

هذه قولة رجل « إنسانى » تزخر نفسه بالعطف وتفيض بالثقة ، فينكر فلسفة سوء الظن ارتجالاً وتطوعاً ، فسوء الظن عنده بالانسانية أمر مكروه لا يقدم عليه الانسان وله منفذ إلى رجاء فيها ، كمن يظن ببعض الآل والحرم ، بعد ألا يجد بداً من الظنون ، وبعد أن ينفد معين الثقة والتعاطف والتنزيه الفطرى للآل والحرم ... ويقول :

إذا ما تبينت العبوسة فى امرئ فلا تلحَهُ واسأل سؤال حكيم
أجل سله قبل اللوم فيم انقباضه وفيم رمى الدنيا بطرف كظيم
لعل طلاب الخير سرُّ انقباضه وعلة حزن فى الفؤاد مقيم

(١) ورقة التحويل المالى
(٢) الخير الوافر

فما تحمد العينان كل بشاشة ولا كل وجه عابس بذميم
قطوب كريم خاب فى الناس سعيه أحب من البشرى بفوز لئيم

وهذه قولة رجل ، معنيّ بالغايات النفسية ، لا بالمظاهر البادية على الوجوه ورجل يعدل « عدل الأناسى لا عدل الموازين » فى الحكم على قيمة العبوسة والبشاشة فى الجبين . ورجل عطوف يتقصى أسرار النفوس ويقدر أحوالها ، ويوسع صدره لبدواتها ولا يتسرع فى سوء الظن بها ، وبذلك ينفذ وصيته السالفة .

ويقول :

لا تقل : فاجر وبرٌّ . ولكن قل: هو الصدق والمراء صنوف
رُبَّ حق فيه نفيس ومرذو ل ، ومَيْن يرجى ومَيْن يخيف
إنما الفاضل الذى فضله فى الخير والشر فاضل وشريف

وهذه أبيات لا تكتفى بتصحيح مبدأ فى الأخلاق ، بل هى تخلق مبدأ . ويطول بنا الحديث لو ذهبنا نشرح هذا المذهب ونناقشه ، ونوازنه بمذاهب الأخلاق ، وتعريف الحسن والقبيح ، وبيان أسباب هذا الحكم ، الخ ، فنكتفى بشرحها فى اختصار :

ليست عناوين الأخلاق المتواضع عليها هى الحكم الفصل فى تقدير قيمة هذه الأخلاق ، فالصدق مثلا لا يعنى أن كل ما ينطوى تحته ، فاضل وشريف ، والكذب لا يعنى أن كل ما ينطوى تحته مرذول وخسيس ، ومثلهما بقية عناوين الفضائل المتعارفة . إنما مناط الحكم على الصدق وعلى الكذب ، أمر آخر غير عنوانهما . ففى الصدق ما هو شريف ومرذول ، وفى الكذب كذلك ما يكون هذا أو ذاك ؛ وفى سواهما مثلهما

وكم من كذبة عظيمة ألقاها مصلح ، أوفاه بها بطل ، أو زخرفها فنان ، هى أشرف وأعظم ، من « صدقة » حقيرة ، ألقاها جاسوس ، أوفاه بها مجرم ، أو طرحها مطموس لا يعنى بها قصداً

وكم من « بوهيمية » عاش فى ظلها فنان تمده بالخصوبة والإلهام ، هى أشرف من استقامة عاش فى ظلها جلف يقنع بها عن ضعف ، أو انطماس بصيرة ، أو فتور حيوية

وعلى أية حال فتلك نظرية تمر هكذا فى ثلاثة أبيات ، بين الركود العقلى والنفسى فى مصر ، ولو وجدت حياة زاخرة لكانت موضع جدل ومناقشة ، ومثار انقلاب فى مبادئ الأخلاق . ولكننا فى مصر حيث الركود والاستهتار

والذى يهمنا منها الآن ، هو دلالتها على طبيعة العقاد ، التى لا تحفل الظواهر والأشكال ، إنما يهمها تقدير العامل النفسى الباطن فى الأعمال والأقوال

* * *

ومثل هذه الخطرات هى التى يسميها بعض ذوى النفوس الضيقة ، والأحاسيس الضامرة ، فلسفة لا شعراً . ويمنون أنها صور عقلية عمل فيها الفكر وحده . وقد اتضح من شرحنا لها ، أنها تقوم على العامل « النفسى » أول ما تقوم ، وأن الطبع الحى البصير هو الذى يوحى بها

وكل ما ينقص هذه الخطرات لتكون من العاطفة فى الصميم ، أن صاحبها لا يضع لها لافتة (يافطة) مكتوب عليها : « هنا شعر عاطفى » !

أما أصحاب النفوس ، فيحسون ويقدرون : أى نفس تلك التى تلتفت مثل هذه اللفتات ، وأى عاطفة عميقة فى ثنايا هذه الأبيات

« حلوان » مبر قطب

اطلبوا مؤلفات

محمود تيمور

وهى : الحاج شلبى . الاطلال
أو على عامل أرتست . الشيخ عفا الله
الوثبة الأولى . قلب غانية . نشوء
القصة وتطورها

من جميع مكاتب القطر الشهيرة

كتاب « فرعون الصغير وقصص أخرى »

يظهر فى نهاية العام